الحصار الأخير

بقلم صوفي عبدالله

أصيل بما يشبه الطمأنة ، وشعرت باعز ماهي حياتها يحتضر فوقفت جامدة كالتمثال والورقة في يدهـا تتراقص سطورها أمامها ، ثم تتداخل وتتطمس وشل لسانها والرجل الواقف امامهـا يحثها على التوقيع ليذهب لقضاء بقية مهامه .. وفي حركة آلية امسكت بالقلم بين أصابع مرتجفة ووقعت .. نعم وقعت فما كان في امكانها أن تفعل غير ذلك فقد فوجئت به .. فوجئت به على غير انتظـار أو توقع .. فوجئت به ولم يخطر ببالها يوما ان يحدث هذا .. . فوجئت به كالصاعقة حينما تنقض على راس انسان من حيث لا يحتسب .. كيف يمكن أن يحدث هذا ؟ . . كلا انها مكيدة دبرت لها .. فهذا الشخص غير موجود .. غير موجود على الاطلاق ، وحتى لو كان موجودا لما تجاسر .. فباي حق يأتي الآن ؟ ! باي حق يظهر على مسرح حياتها ويطالبها ! الله عندهـا شيء .. ؟ الم تكن هـذه الوديعـة هي التي دمر حياتها بسببها ؟ شردها حكم عليها بالذل والهوان لكي تتخلص منها .. اوقع عليها يمين الطلاق قبـل ان تكتحل عيناه برؤيتها .. تركهـا عرضة لأعاصير الحياة وتقلبات الزمن ، وهو يعلم تماما ان لامورد لها .. هل بعد كل ذلك يعود ليطالبها بها ؟

وتسـاءلت لترمي على أول مقعـد صادفها ، وشريط حيـاتها يترى امام ناظريها في صور متلاحقة .. ويدهـا قابضة على الورقة تلوكها بين أسنانهـا دون أن تعطي لحركاتها .

هاهي فتاة تجري وتتعامر وتتضاحك وترتمي على حجر ابيها .. انه يعبدهـا فهي وحيدته ، قرة عينه .. الأمـل الباسم الذي يرى فيه جمال ايامه .

أمها فقدت بولادتهـا آخر امل في ولادة ثانية استؤصل رحمها ، وأصبحت (صفاء) رحم ابويها بعد ان بلغ والدها من السن ما يركن فيه الى حياة الدعة .

لقد تزوج أمها بعد ان تخطى سن الشباب .. تزوجها بعد أن قضى مع زوجته الاولى عشرين عاما ، وماتت دون أن تنجب له ذرية ، كانت هي اول ذريته .. عندها من دون الله .. أغدق عليها من موارده الضيقة، كان يستدين أحيانا اذا طلبت منه ما تعجز يده عن احضاره .

وكبرت في خضم هذا التدليل .

كبرت وكبر معها الاحساس بالملكية لكل ما تشتهيه .. لا غير على والدها لأنها يقف في سبيل رغبة تشتهيها .. انها الملكة المتوجة على عرش بيت رعاياها فيه أب وأم وخادم . وعالم واحد من حولها اذا أرادته ملكا خالصا لها توافي والدها في تمليكه لها .

كان هذا شعورها حينما خرجت من عالمها الضيق من مملكتها الصغيرة . . مملكة البيت والاسرة .. الى العالم الواسع من حولها .. عالم الدراسة .

ومن الطبيعي أن تصطدم عشرات المرات في اليوم بالاطفال من حولها .. لقد تعودت أن تطاع .. أن تكون الآمرة الناهية .. أن تخضع الجميع لرأيها .. حتى الاطفال الذين كانوا يزورون الاسرة مع أمهاتهم .. كانوا يطيعونها حينما يجلسون للعب معها بلعبها الكثيرة ..

ولكنها هنا لا تطاع . هنا مثلها مثل الآخرين . لهم ما لها من حقوق . وعليها ما عليهم من واجبات . وهي تعودت غير ذلك .. تعودت أن يكون لها كل الحقوق ولا تطالب باي واجبات .

وراحت تصرخ وتعول وتضرب الارض بقدميها . فكان جزاؤها عقابا وحرمانا من اللعب . فلجأت الى والدها شاكية باكية . فيحجزها بجانبه عدة أيام . وكانت والدتها تحثه على ارسالها والا تلعب !!

هل كانت تفكر في مستقبلها وهذا انها واضعية هكذا .. قاصة نظرها من والدها .. فليذهب مستقبلها الى الجحيم

ما الذي ستفعله به اذا كان في مستقبل المستقبل مدرسة وتلاميذ وامارة .. وبهدلة ! هنا هي بجانب والدها ، ملكة متوجة لايشاركها احد ، ولا ينازعها أطفال «مقاعيص» .

وعلى هذا الاساس تعثرت في دراستها .

وسرحت بخاطرها تستعرض زميلاتها اللواتي أصبح منهن طبيبات ومدرسات وأقلهن شانا تكسب قوتها بعرق جبينها متزوجات نعم .. ولكنهن صاحبات مهن يعولن عليها اذا جانبهن الحظ في الزواج .. أما هي ؟

لم يكن الدرس شغلها في طفولتها وصباها ، كان همها ان تثبت نفسها أن تشعر الآخرين انها اقل منها شانا فليس تفوقهن في الدرس دليلا على انهن يفضلنها ، فهي تستطيع أن تحصل على اي شيء لا تستطيع هن الحصول عليه .. في امكانها أن تطلب نجوم السماء فيجاب طلبها . ليس الدرس ما يهمها فهي في غنى عنه تماما .

كانت تسهر هن بما تلبس من ثياب ، وما تتزين به من حلي ، وكانت تتحدى أي واحدة منهن أن يكون لها من الحرية مالديها .. وكل يوم تطلع عليهن بجديد وتسرد على مسامعهن اخبار نزهاتها .. والجديد من ملابسها .

وان تنس فلا تنس يوم أن تحدثها الطالبة (نعمات) «الفتاة الفضل» والفتاة المتفوقة التي لم تتخل يوما عن أولويتها كيف سخرت منها ، وهي في وسط «الشلة» تقص عليهن آخر مشترياتها

نادا بعمات تهكم عنها عن بعض ما تحه (ملك بحبان تتاصل من المجتمع) .

هنا ثارت ثائرتها ، واستعدت عليها الطالبات جميعا .. الطالبات اللواتي كانت تعق عليهن عن سخريته ، فرحن يعايرنها بفقرها ، وبملابسها البالية ، ويقارن بينها وبين ملابس صفاء الشيك الأنيقة ... ولم يتركنها حتى بكت المسا مقهورة ، وقد تخلى عنها الجميع ، ، ، عما انتشت بالانتصار على خصمها اللدود .

أين هي الآن بعمات الفتاة العادة المتفوقة التي لم تكن تملك سوى ثوب واحد ترتديه تحت مريولتها المدرسية طوال العام .

لقد أصبحت طبيبة يشار اليها بالبنان وأين هي منها الآن .

ورفرت من أعماقها .

لولا فرحتها بان تظفر به للكتمتهن جميعا لما أصبح هذا شأنها .

ووالدها .. لماذا تركها تلهو دون رادع .

كان يدللها فعلا ... ولكنه عارض أشد المعارضة في زواجها المبكر ، وبعد بلغت السادسة عشرة والعريسان يتقدمون لها واحدا في أثر الآخر ... لكن والدها رفضهم جميعا دون استثناء .

لماذا ؟ لم تكن متفوقة ، ولم يكن يبشر لها بمستقبل علمي باهر ، او حتى متوسط ... كانت في الثامنة عشرة من عمرها حينما تخلفت في الابتدائية بجهد الجماعة ، وبمعاونة زمرة من المدرسين الخصوصيين ، وانتقلت الى السنة الاولى الثانوي ... ومع ذلك كان والدها يعزيها بشتى المعزيات ليدفع بها الى حجرة الدرس ويزين لها مستقبلها بعد التخرج ... وقد تبوأت أعلى المناصب وأصبحت حرة بنفسها تتصرف كيفما تشاء دون حاجة لانسان .

كان يعلم أنه لن يعيش لها طويلا ، ولا يملك عقارا يورثه لها ليكفيها شر الحاجة ، فلا شيء اذن سوى العلم ، العلم وحده هو الذي يعصمها من شرور كثيرة .. والزواج الآن ـ حتى ولو كان زواجا طيبا ـ لا يضمن أن تستريح مع زوجها وهي الدلوعة المستهامة الطلعات فاذا كان هو يعزها كما لا يستطيع غيره في الحياة أن يفعل معها ... فمن أدراه أن الزوج يحذو حذوه ، ولا يذيقها الهوان اذا أرهقته بالطالب التي اعتادت عليها واصبحت في نظرها من المسلمات .

ووقعت في حيرة .

ولا تدري أكان حبا هذا الذي حملته له ، أم رغبة مشبوبة للحب الاخرياب بعد أن رأتهن يتدللن في حبه ؟

وسواء كان هذا أو ذاك ، فقد بهرتها وسامته المفرطة ، وشعره الأسود القصير (المسبس) وعيناه الزرقاوان الباعثتان .

راته وهي في طريقها الى مدرستها الجديدة ، وهو طالب مرح بالمدرسة الثانوية التي تجاور مدرستهم ، يرقص باسرار ان يتركها للعاصفة لانها مورد رزقه ... مورد رزقه عن طريق طالبات المدرسة الثانوية اللواتي يغدق عليه الهدايا .. فهو يعرض كما يستدل فصائله المسحرة ذات الالوان الفاقعة

التي يغوى بها الصغيرات فارغات العقل فيقعن في حبه .. فيتدلل عليهن .. فيطلن ودّه بالهدايا ويصبح الأمر الناهي .

ثم يأتي الهجر بعد الوصال، فتعرف الفتاة معنى البكاء والسهد وسهر الليالي والاقدام على الانتحار .. ولكن زين المدلل يكون قد استنفد كل ما يريد من فتاته حتى آخر قرش معها ، وغير بعيد أن تبيع اسورتها او خاتمها او ساعتها ، لتشتري بثمنها هدايا لزين ليرضى عنها ، ولا بأس من أن تقسم لماما انها ضاعت ، وماما لاتحسر بالتالي أن تخبر الوالد الحمش لئلا يقطع رقبتها .

وزين يستطيع أن يعرف كل مايتعلق بالفتاة قبل أن ينصب شباكه حولها .. ووجد صفاء صيد ، سمين ، وهنا راح يتودد اليها ويعاملها بعينيه الناعستين وهي رأت فيه انتصارا آخر على رفيقات درسها .

ودون اي تفكير اقدمت على المغامرة ، ولم تكن المغامرة كلها كبيرة للزميلات . بل ان حسبه نهرها ، وقصصانه العاقعة الألوان من ثيابه مستحسنة الى احمر قاتم الى لبني مزهره .. كانت تضفي عليه طابعا مميزا عن كل من حوله .

وتململت صفاء في جلستها ، ثم قامت تقطع النهر الصغير ذهابا وايابا كالطير الجريح ، وهي تعرك بين اصابعها في عنف تلك الورقة التي سلمت اليها من خطة .

ماذا يريد منها الآن ؟ ماذا يريد بعد عشر سنوات من انقطاع اخباره .

كان سؤما ذلك اليوم الذي خطت فيه بقدمها الى الحديقة التي تواعدا على اللقاء فيها .. لم تكن أقدمت على مثل هذه الفعلة النكراء حتى بلوغها هذه السن ، ولا تدري كيف استطاع ان يؤثر عليها حتى استدرجها الى لقائه .

كان لطيف الحديث ، بارعا في اختيار كلماته ، جعلها تنسى نفسها ، سحرها بعذب الفاظه ، وكان في استطاعته أن يأمرها فتجيء بعد ذلك صاغرة اليه ، ولكنه ترك لها حرية الاختيار ليمتد بحرها وبصراعها بينها وبين نفسها ثم بهزيمتها أخيرا وموافقتها ، وهكذا لم تفارقه الا بعد أن ربطت نفسها بموعد آخر للقاء فيه .

ومع ذلك كم راجعت نفسها ، وكم من ليلة قضتها مسهدة تستعرض موقفها بيد ان كلماته المصقولة كانت ترن في اذنها كانغام الموسيقى الشجية ، وهي تراه بين الخيال ، بقامته الفارعة وجماله الساحر .

وفي المرات التالية طلب منها أشياء بدت غريبة منفرة .. فرفضتها باصرار ولم يستطع صوته الساحر ، ولا عذوبة الفاظه أن تثنيها عن عزمها .. بل وقررت أن تقطع علاقتها به .

وتنهدت بحرقة وعمقت

ـ ليتني فعلت .

ولكنه لم يتركها .. راح يلح أن يتزوجها .

وصعقت !! تتزوج منه هو قبل أن يتهي تعليمه ؟ وكيف يعيشان ؟

واحد يرين لها حياة الزواج ، وانه يملك عقارا يستطيع أن ينفق منه حتى

ينتهي من عمله ويحظى بالوظيفة المنشودة ، وهي ؟ هل تقطع تعليمها ؟ هل تحدل والدها ؟

فقال وهو يختصها اليه

ـ الحياة ليس لها سوى روحها ، أما المال فهو كلام فارغ مادامت في كف روح يبقى عليها عن سعة ويهيىء لهـا الحياة الرغدة ·

وارادت ان تقاوم ، ولكن لدة عناقه أذابت كل مقاومة لها ·· ورضيت أن تتزوجه وتهرب معه الى مكان بعيد حتى تهدأ الحالة بعد ان يرى والدها نفسه أمام الامر الواقع فيغفر لهـا ويعودان بعد أن يصفح عنها ليعيشا مع والدهـا حتى ينهي تعليمه ·· عليهـا فقط أن تكتب له خطابا تتركه في مكان ظـاهر حتى لايزعجه غيابها فيأخذ الى البوليس الامر الذي يريدان تحاشيه بشتى الطرق تجنبا للفضائح ·

وتركته على لقاء سريع في صباح اليوم التالي ·

وامضت الليل بطوله تتسق في الخطاب وتعيد كتابته عشرات المرات لتجعلـه خفيف الوقع على والدها المسكين ولمست بعض ثيابهـا لضرورية في حقيبـة مدرستها ، فقد قدرت ان غيابهـا لن يطول ، وانها لابد عائدة بعد أيام ·

وكعادتها في الصباح قبلت والدها ووالدتها قبل النزول الى المدرسة وتابطت حقيبتها بعد أن وضعت الخطاب في أبرز مكان بحجرتها ·

وكان في انتظارها ـ كان يعلم انها لن ترضى بالذهاب معه الى اى مكان قبل أن يعقد عليها ·

وجلسا في مكان عام يتناولان بعض المرطبات وما ان دقت الساعة العاشرة حتى توجها معا الى المأذون ، وعقد لهما· وأعطاها صورة من العقد ، واخذ هـو صورة في حيبه ·

أكان يحبها فعلا ؟ ·· لماذا اذن أقدم على كل هذه الاجراءات ان لم يكن يحبها؟

وركبا القطار الى الاسكندرية ليقضيا اياما من العسـل حتى يصفح عنهـا والدها ·

وعاشت معه اياما كانهـا تعيش في الجنة ·

ولم يمض اسـبوع ، ودات صباح فتحت الصحيفة وهي على مائدة الافطار ـ كما تفعل كل صباح ـ تطوف بعينيها على المكان الذي يمكن ان تجد فيه نداء من والدها يحثها على الرجوع اليـه ونسيان ما ندر منها ·

ولكنها بدلا من ان ترى النداء وجدت صورة والدها وتحتها نعيه ·

مات المسكين ، لم يتحمل الصدمة · قتلته ·· هيا لها الحياء فسلبته اياها ·

وراحت تبكيه بحرقة ، وربى واقف أمامها في شرود ·

ولم تستطع أن تعود الى البيت ·

كيف تقابل والدتها ؟ كيف تواجـه الناس من حولها ؟ سيشيرون اليهـا باصابعهم وان لم يكن تعييرهم ·

هاهي قاتلة أبيها ·

لابد أن تبقى في الاسـكندرية حتى تهدأ الحالة ·

واستقر في يده

ماذا يفعل ولم يبق معه من النقود ما يكفيهما .

واباه لفرج من حيث لا يحتسب .

أرسلت والدتهـــا نداء في الجرائد الثلاث تناشدها العودة وقد صفحت عن جميع تصرفاتها .

وعادا ...

وتكشف لها ربي بكل صوره البشعة ترك والدتها تنفق عليهما من المعـــاش الضئيل الذي تركه لها والدها .. وعاد هو الى حياة اللهو واللعب مع الفتيات كما كان يفعل قبل الزواج .

وسألته بعد أن طفح بها الكيل .

ـ كيف يرضى على كرامته أن تنفق عليه وعلى زوجته امرأة لامورد لهـا الا القليل الذي يتقاضاه معاشا .

فأجابها في بساطة

ـ انه حر فيما يفعل ، وانها تعيش مع امها ، فاذا لم تنفق عليها أمها عن طيب خاطر فمن تنتظر ينفق عليهـــا وايراداته لم تصله للآن ؟

وتصرف كما يكف ، وتحس بالعرق ينضب على جبينها وهي تتذكر يوم أخبرته أنها حامل .

وصل الامر به أن ضربها حينما رفضت باصرار أن تذهب معـــه الى طبيب ليجهضها .

لايمكن أن تتخلص من وليدها ، كان الموت أهون عليها من أن تفكر في التخلص من جنينها .

ـ فكيرها في زواج كان بالنسبة قبل أن يكون للحب ، لأحد يدري كيف تعيد الاطفال ـ ولا هو ربي يستطيع أن تحس بحسنها ولهفتها على الاطفال .

ورفضت .. رفضت رغم تهديداته واعتدائه .. فقد بدأ يتعبها ويلعن اليوم الشؤم الذي عرفها فيه .

ولم تتكلم ، تركته يخرج كل ما في جعبته ، ثم أدارت له ظهرها وخرجت من الحجرة ، وخرج هو الى الطريق .

ومنذ ذلك اليوم لم تقع عينها عليه

ترك البلاد وسافر ..

الى أين ؟ لاتدري لم يكن لديه عقار ، ولا أهل له ، ولا أقارب ، ولم يقف له على اثر .

كان الاثر الوحيد الذي تركه لهـــا ورقة طلاقها .. وصلتها على يد شبيح الحارة في مساء اليوم نفسه .

وعاشت في حزن مقيم ، حزن على حياتها التي اضاعتها هدرا ، وحزن على والدها الذي قبلته برحمة تصرفاتها .

وولدت ابنتها انعام نسخة مصغرة من أبيها ، طفلة آية في الروعة والجمال .

وعاشت لتربيها ، عاشت لها طوال العشر سنوات ، أنكرت نفسها تماما أوصدت قلبها وأغمضت عينيها عن كل متع الحياة .

اعادت حب والدها لها في حينهـــا لايمان ، ولكن بدون تدليل .

كانت أمها تنظر اليها وتتعجب .. كيف تتحمل المذلة ، الفقر والجوع ،

وحياة الذل كما لايتحملها الرجال . .

واخيرا وبعد عشر سنوات من الذل والحاجة فتح الله عليهم على صورة ارث آل لأمها بعد موت عمه لأمها عجوز عانس .

وبعد عشر سنوات أيضا عاد «رؤف» يطالب بضم ابنته اليه .

هذا الذى أراد أن يرهق روحها قبل أن ترى الحياة ، يأتى الآن لياخذها صبية يافعة كالزهرة .

أين كان طوال هذه المدة ؟ ولماذا يطلبها الآن ؟ ما الذى ارتكبته فى حقه حتى عاملها هذه المعاملة ثم أخيرا يصر عليها بحضانة ابنتها ؟ أليست هذه الابنة هى التى لعطها بسببها . أم انها تعلة اتخذها ليهرب من مسئولياته كلها !

انها لم تطالبه بشىء ، ولم تطالبه مدى الحياة ، فقط ليبتعد عنها ويترك لها وحيدتها ، أملها كله والنسمة التى تنعشها وتحيا بها .

أو يريد أن يرجع اليها وهو يعلل بايمان .

واستكرت الحنين الذى يرجف الى قلبها بعد الذى اقترفه فى حقها .

لتقتل نفسها ، لترهق روحها قبل أن تفكر فى الصفح عنه .

ولكن كيف تشيه عن أحد يمان كيف تنت للمحكمة تصرفاته وسيىء طلاقه لها .

وتهاوت على المقعد مرة ثانية .

ودخلت ايمان في بد جدتها عائدة من المدرسة ، وارتمت على امها تقبلها .. واحتضنتها صامتة في يأس موجع .

اكتب عليهـــا أن تشرب المر حتى الثمـــالة ؟ الم تكف السنوات العشر تكفيرا عمـــا ارتكبت .. يستطيع ان يسلبها حياتها أما ايمان فالسماء أقرب اليه من أن ينال شعرة من رأسها .

وعدتها أمها أن يعيبا محاميا للدفاع عنها .

وراودتها نفسها على الصلح اكراما لايمان لكنها تراجعت ، تركت المحامي يسير في اجراءاته ويعرض عليـــه أي شيء في سبيل ترك ايمان لها .

وفي المساء أخبرها المحامي انه يريد خمسمائة جنيه مقابل أن يتخلى لها عن ابنته .

وصعقت ابنته ؟ منذ متى عرف ان له ابنة ؟ ومن أين لي بهذا المبلغ ؟ .

ـ يقول المحامي

ـ يقول من الميراث الذي آل لوالدتك وسيكتب لك تنـــازلا كلـــيا ولن ترى وجهه بعد الآن .

وهزت رأســـها في أسى لاتستطيع حلاوة العالم كله ان تغريه ، ولم تدر عادا تجيب ـ ومرة اخرى رنت في أذنيها كلمة أمها التي ترددها على مسمعها دائما كلما رأت (حالها المائل) .

ـ من يزرع الريح يحصد الزوابع .